المقاومة واستراتيجية التمزيق النفسي

عبد الرحيم غنيم

الاستراتيجية كما يعرفها الجنرال سوكولوفسكي « أسلوب للمعرفة النظرية يهتم بقوانين الحرب كصراع مسلح من أجل مصالح طبقة معينة ، وعلى أساس مستمد من الخبرة العسكرية والظروف السياسية والعسكرية والامكانات الاقتصادية والمعنوية ، والاساليب الجديدة لادارة الحرب ، ووجهات نظر العدو المنتظر »(١). فهي اذن تتطلب شمولية في الحسابات التي تضم الخبرة والظروف والامكانات والاساليب والاحتمالات ، كل ذلك في نطاق ما أسماه اندريه بوفر بـ « فن حوار القوى » أو « فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها »(٢) أو ما أسماه ترونغ شين بـ « فن قيادة الحرب الى النصر »(٣).

من الواضح في ضوء هذا التعريف ان دور العامل النفسي « المعنوي » هو دور جزئي ، ولا يستطيع بالتأكيد النهوض وحده كأداة لقيادة الحرب الى النصر . وهـذا طبيعي ، اذ ان عامل التأثير النفسي انما يستمد أهميته في الحرب من القوى المادية التي يستند اليها . كما أن اهميته تقاس بمدى ما يترتب عليه من تأثير مادي .

الا ان هناك فرضية نستطيع ان ندير حولها الجدال بصـدد الصراع العربي ـ الصهيوني بالذات وهي ان عنصر التأثير النفسي يمكن ان يرتقي في هذا الصراع من مسـتوى اداء دور العامل المساعد الى مستوى العنصر ذا التـأثير الاستراتيجي الحاسم . وان ارتقاءه الى هذا المستوى يتوقف على شرط رئيسي ـ بالاضافة الى المستلزمات الضرورية لادارة الحرب النفسية ـ وهو توافر طاقة الدفاع والردع العربية . واثبات هذه الفرضية ، من شأنه ان يقود الى استنتاجات بالغة الاهمية فيما يتعلق بالدور العسكري والسياسي للمقاومة الفلسطينية ، والابعاد الخاصة لتجربتها النضالية، ودورها في نطاق الاستراتيجية العربية الشاملة للتحرير. فدورها في الصراع لن يحسب في مثل هذه الحالة على أساس قياس تطور ميزان القوى الفعلي في الصراع، وفق الحسابات المعتادة للقوى والوسائط وفن ادارة الحرب ، وانما سيحسب على أساس مدى قدرتها على اغراق العدو في دوامة التمزق النفسي ، والنتائج المادية لذلك.

ان الاساس الذي تعتمد هذه الفرضية عليه هو حجم تأثير العامل النفسي في اقامة الكيان الصهيوني في فلسطين واستمراريته . فالكيان الصهيوني « اسرائيل » هو نتاج للايديولوجيا الصهيونية (فكرا وحركة) ، وقد اعتمدت الايديولوجيا الصهيونية عـلى مرتكزات اساسية ثلاثة هي : وهم القومية اليهودية ، ودعوى اضطهاد السامية ، والنظرة اليهودية النفعية ، كعناصر متكاملة فكرية ونفسية ومادية ، تبرر الاغتصاب لاقامة « الوطن القومي اليهودي » الذي يكون ملجأ آمنا لليهود وقاعدة اسـتثمار أمبريالي وتوسع اقليمي(٤).

ان استمرار ممارسة الايديولوجيا الصهيونية لدورها الذي تفترضه تلقائية التأثير